رواية

ليف تولستوي

البعث

مكتبة بغداد

ترجمة : صياح الجهيم

رواية

المؤلف: ليف تولستوي

عنوان الكتاب: البعـــث

ترجمة: صياح الجهيم

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الاولى: 1984

الطبعة الثانية: 2016

جميع الحقوق محفوظة

Author: **Лев Никола́евич Толсто́й**

Title: **Resurrection**

Translator: **Sayah Al jhayem**

cover designed by: **Majed Al Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: 1984

Second Edition: 2016

Copyright © Al-Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بـغـداد: حـي ابـو نؤاس-محلة 102-شارع 13-بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102–13 Street–Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول

info@daralmada.com

+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 آيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ليف تولستوي

البعـــث

ترجمة : صياح الجهيم

صدرت الطبعة الأولى عام ١٨٩٩

مقدمة

تشهد سنوات ١٨٨٠ على أزمة تولستوي الكبرى، الدينية والفنية. ذلك أن مؤلِّف «آنا كارينينا»، في بحثه الدؤوب عن المطلق، يدخل صراحةً في نزاع مع الكنيسة الرسمية. بل إنه ينفصل عنها ويغدو كالمتشيّع الذي يشبه بعض الشبه أتباع المانوية وبعض الهوسيين[١] في العصر الوسيط، مقتنعاً حتى التعصب بأنه هو وحده القادر على فهم المعنى الحقيقي للإنجيل، وأنه هو وحده المالك لسر التعليم الذي كان يريد أن ينشره في العالم بأسره، وللناس جميعاً. وحين يجعلُ تولستوي، على هذا النحو، من التبشير الديني والأخلاقي، بل من الدعاوة الدينية والأخلاقية هدفاً له، فإنه يُخضِع عقائد الكنيسة، والدولة، والعلوم، والفنون على وجه الخصوص، لنقد لا هوادة فيه. إن ضرباً من الروسّوية[٢] المتشددة لا تُريه في الفن إلاّ عنصراً مفسداً للأخلاق بعد أن فقد وحيه الديني القديم، ورمى إلى تمجيد الجمال والشهوة وحدهما دون غيرهما. ومن هذه الزاوية البالغة الضيق لا يتردد في إدانة الآداب بمجموعها فيُزري على شكسبير وبوشكين

١. طائفة دينية.

٢. نسبة إلى روسو.

ويتبرّأ من عمله الأدبي الذي يجده مسرفاً في الترويج للجمال بل وسطحيّاً. و لم يعد يطمح إلا في تأليف قصص واعظة أو تعليمية، موجّهة إلى عامة الشعب، جديرة بأن توقظ لدى الناس مشاعر الحب المتبادل، وغفران الخطايا المتبادل. عمل أدبي جديد لا زخرفة فيه، عمل خال من التزويق، وتهذيبي جوهرياً، ذلك هو الهدف الذي كان عليه أن يبلغه منذئذ.

وهو يُنتج إذن في هذه المرحلة طائفةً من القصص سيُطبع معظُمها في «الوسيط». وأهم من ذلك بكثير في نظره الأبحاث ذات الطابع الديني والاجتماعي: «اعترف» (١٨٧٩ –١٨٨٢)، «نقد علم اللاهوت العقائدي» (١٨٨٠)، توافق الأناجيل الأربعة وترجمتها» (١٨٨١)، «ديني» (١٨٨٣)، «ماذا ينبغي أن نفعل» (١٨٨٤). وأبحاث أخرى كان صداها كبيراً في روسيا وخارج روسيا. على أن القريحة الأدبية لديه لم تنضب: فهو يكتب للمسرح، وبعض مسرحياته، بالرغم من «اتجاهها» لا يُعوزها التشويق من الوجهة الدرامية وحدها، بل إنها تشهد هنا وهناك على «مهارة المعلم» مثل «سلطان الظلمات» (١٨٨٦). وأخيراً ففي أثناء هذه السنوات الشديدة، يؤلّف «البعث» هذه الرواية العظيمة التي تحتل، بحق، مكانها إلى جانب «الحرب والسلم» و»آنا كارينينا».

تعود بذرة هذا العمل إلى عام ١٨٨٧. وهي تُولَد من حدث واقعي. كان لتولستوي آنذاك علاقات ممتازة مع النائب العام «أناتول فيدوروفتش كوني» (١٨٤٠ –١٩١٨). وهو حقوقي شهير، ذو فكر متحرر، ونزاهة خلقية عظيمة، وأفضل ممثل للحقوقيين الروس

مـن جيل ١٨٦٠. ولقد أوتي موهبةً أدبية حقيقية، فنشر مرافعاته كما نشـر مذكراتـه، ولاقت نجاحاً كبـيراً. وهو الذي قصّ ذات يوم على تولستـوي واقعةً مؤثرة مـن حياته القانونيـة: زاره شاب من المجتمع الراقي أراد أن يسلّم ظرفاً مختوماً إلى إحدى السجينات. وأبت الإدارة عليه ذلك، فقصد النائب العام «كوني» يطلب عونه. اهتم كوني بالأمر وعلم أن تلك السجينـة مومس اسمها «روزالي أوني»، وأنها محكومة بسبب سرقتها مائة روبل. لكن كان وراء ذلك قصة طويلة: لقد كانت «روزالي» فلاحة صغيرة يتيمة اشتغلت خادمة لدى سيدة ثرية دللتها. فأغراهـا ابـن تلك السيدة –وهـو الشاب الذي قصـد النائب العام– وحملـتْ منه، وما لبثت أن طُـردت من البيت وغرقت شيئاً فشيئاً في الدعـارة. وإذ اتُهمـت ذات يـوم بالسرقة، أُحيلـتْ إلى المحكمة التي كان بـين محلّفيها ذلك العشيق القديم، فحُكم عليها بالسجن. وعندما تعـرّف العشيق تلك الفتـاة التي أغواها قديماً، عضّـه الندم لأنه دفعها علـى طريق الهـلاك، وعرض عليها الزواج ليكفّـر عن خطيئته. لكن البائسة أصيبت بالتيفوس الذي كان يفتك بالسجن حينئذ، وماتت في المشفى، قبل أن يتم الزواج.

تأثر تولستوي بهذه القصة الحقيقيـة، والأخلاقية على نحو شديد العمـق. وإنما اشتـد تأثره لأن حدثـاً مشابهاً وقع له أثنـاء شبابه الذي بعـد العهد به. ونحن نملك بهـذا الصدد شهادة ثمينة من كاتب سيرته «بيريوكوف». فقد روى «بيريوكوف» بالفعل أن الكاتب ابن الثمانين قـد أسـرّ إليه في آب ١٩١٠ قبيل موته قائـلاً: «أنت لا تكتب عني إلا مـا هو حسن. وهذا غير صحيح وغير تام. يجب أن تقول أيضاً ما هو سـيء. وأنا إذ أحدّثـك حديثي لكاتب سيرتي، أرجـوك أن تُثْبت في

سيرتي بعض الأحداث وهي، أولاً، صلتي بفلاحة من قريتي قبل أن أتزوج. ويمكن أن نجد إشارة إليها في قصتي «الشيطان»، وثانياً الجريمة التي ارتكبتُها بحق الوصيفة «ماشا» التي كانت تقطن في بيت عمتي. كانت عذراء وأغويتها. فطُرِدَت وسقطت. «وعندما نقبل بين ما رواه بيريوكوف وحبكة «البعث»، فسوف نرى كل ما يدخل في العلاقة بين نيكليودوف وكاتيوشا من سيرة ذاتية. ويقول كاتب سيرته أيضاً: «وهكذا نستطيع أن نفسّر شغف تولستوي بهذا الموضوع، وذلك الاندفاع الذي أراد به أن يُنهي وينشر هذه الرواية، حتى قبل القصص التي كان قد بدأها». كانت «جريمته» تُثقل كاهله، وكأنه أراد أن يكفّر عنها، وهو يعترف بها علانية.

هناك وقائع أخرى: ففي أواخر القرن الثامن عشر ظهرت طائفة دينية في سهوب روسيا الجديدة التي استُولِيَ عليها قبل فترة وجيزة، والتي دعت كاترين الثانية إليها المستوطنين من جميع البلدان؛ ومن بين الذين دعتهم الألمان والفرنسيون. لقد أنشأت قرى روسية نظاماً دينياً شديد الصرامة وربما كان ذلك بتأثيرات مينونية[٣]: كانوا ينبذون العبادة، والطقوس جميعاً، وعبادة الصور، بل وكل تنظيم كنسي. كانوا يأبون أن يكونوا خدّاماً للدولة، وكانوا يأخذون أخذاً حرفياً بالوصية: «لا تقتل» فيرفضون أداء الخدمة العسكرية. كانوا يجتمعون على حدة ليقرؤوا الإنجيل ويرتلّوا المزامير، وكانوا يعيشون حياة مستقيمة وفاضلة، تُلهبهم نفحة صوفية من الحب الأخوي. وقد أطلق عليهم «دوكوبوري» أي: «أبطال الروح» أما هم فكانوا يسمّون أنفسهم:

---

٣. مينونية: نسبة إلى مينون وهو مؤسس طائفة دينية.

«المسيحيين الروحانيين» وجرّت عليهم معارضتهم للدولة سلسلة من الاضطهاد، في بادئ الأمر، ثم هُجِّروا، في أواخر ملك الاسكندر الأول، إلى القوقاز حيث امتزجوا بالسكان الدخلاء، فلم يستطيعوا أن يؤثروا في السكان الروس. وأُعفوا من الخدمة في الجيش، وأُوكلت إليهم حراسة الأحراج. وهكذا قضوا، طوال أكثر من نصف قرن، حياةً وادعة، يعيشون مما جنت أيديهم، ويضعون أموالهم معاً في عهدة أحد مرشديهم الروحيين الأجلاء. لكن الإدارة في زمن الردة الرجعية –نحو ١٨٨٥– أعادت الكرّة لتفرض عليهم الخدمة العسكرية من جديد. فقبلت فئة منهم، وقاومت فئة أخرى. عند ذاك نُفي الزعماء إلى شمال روسيا وجُنِّد المعارضون في أفواج تأديبية، وعوقبوا معاقبة شديدة. وتستولي على الذين بقوا في القوقاز ردةٌ من التعصب؛ ففي سنة ١٨٩٥ تصمم ثلاث قرى على إحراق جميع الأسلحة التي كانت في حوزتها (من المعلوم أن جميع الفلاحين، في القوقاز، بلد اللصوصية، كانوا يحملون السلاح)، وعلى قطع صلاتها بالحكومة، وعلى رفض الخدمة العسكرية ودفع الضرائب. ولقد أُحْرقت تلك الأسلحة في ليلة ٢٩ حزيران بشكل احتفالي، وعلى ترتيل المزامير، وتعتبر السلطات ذلك العمل كأنه مقدمة للعصيان وترسل القوزاق ضدهم. وبعد أن فتكوا بهم فتكاً ذريعاً، طُرِدَ أربعة آلاف من بيوتهم وفُرِّقوا في القرى الدخيلة، وأُلقي بزعمائهم في السجن.

يُلاحظ «بيريوكو»: «يمكن القول، بهذا الصدد، أن هذه الانطلاقة للروح الفوضوية تعود، في معظمها، إلى تبشير تولستوي الذي ظهرت في «الوسيط» كتاباتُه الأخلاقية المنحى، وهي كتابات نشرها في القوقاز أحد أنصار تولستوي المتحمسين–الأمير دميتري كيلكوف–

فأقبل عليها «الدوكوبور» يلتهمونها التهاماً. أما تولستوي الذي كان قد قابل، في الشتاء المنصرم، بعضاً من زعمائهم، وفرح إذ رأى فيهم أناساً قريبين جداً من قناعاته الخاصة، فإنه تأثر تأثراً عميقاً واغتاظ غيظاً شديداً من جراء هذه الحملات التي كان ضحيتها هؤلاء المؤمنون الصادقون والتي بدتْ له كأنها ترمي بروسيا قرنين إلى الوراء، إلى عصر الملك الشمس، وإلى فسخ منشور «نانت». وأرسلَ أمينَ سره «بيريوكوف» ليتحرى الحقيقة في المكان نفسه. فكتب هذا الأخير مقالة طويلة ملأى بالسخط المتأجج عنوانُها: «اضطهاد المسيحيين في روسيا في عام ١٨٩٥». وبما أن المقالة المذكورة لم يمكن لها بطبيعة الحال أن تظهر في روسيا، فقد ترجمها تشيرتكوف ونُشرت في «التايمز» في لندن، ونقلتها صحف أخرى، وتركت أثراً عميقاً.

عند ذاك أصدر «بيريوكوف» و»تشيرتكوف»، في لندن أيضاً، كراسة عنوانها «إلى النجدة» ذيلها تولستوي بملحق. وقد بذل الكاتب نشاطاً هائلاً لمساعدة «الدوكوبور» وكرّر نداءاته في روسيا وفي الخارج –وعلى وجه الخصوص في الولايات المتحدة حيث سارعت أكثر من طائفة –ومنها طائفة الصاجيين– إلى تقديم الدعم المعنوي والمادي.

في شباط ١٨٩٨، تلقّى «الدوكوبور» إذناً بالسفر إلى كندا، هذا البلد العظيم الغني بالأراضي العذراء والذي لم يكن يعرف آنذاك الخدمة العسكرية الإلزامية. كان عددهم سبعة آلاف. وبعد أن باعوا كلَّ ما يملكون لم يستطيعوا أن يجمعوا سوى ثلاثمائة ألف روبل. وكان يلزمهم سبعمائة ألف للسفر وحده. عند ذاك لم يكتف تولستوي

بأنــه تدخّل وكتب سلسلــة من الرسائل لشخصيــات مرموقة، أو بأنه وجّه نداءات عامة إلى الإحسان، بل إنه قرر الخروج على خط السلوك الــذي اختطه لنفسه بصفته مؤلفاً –وهــو ألا يجني مالاً من مؤلفاته– وعجّــل بإنهــاء «البعث» ليخرجه بأســرع ما يمكــن، وليبيعه لمصلحة «الدوكوبور». وعرض عليــه الناشر «الفرد ماركس»، في بطرسبرج، مبلغــاً لا يُصدّق وهو ألف روبل عن كل صفحة مطبوعة، وذلك لكي تَصْــدر الرواية في مجلته «نيفا»[٤] وإذ عجّــل تولستوي عمله، أخذت الرواية تظهر منذ شهر آذار ١٨٩٩ في مجلة «نيفا» (على أن تُحذَف منها مقاطع فرضت الرقابة حذفها) وأخذت تظهر بنصها الروسي الكامل في الوقت نفسه، في لندن، برعاية تشيرتكوف، كما تُرجمت إلى عدة لغــات. وقبض تولستوي مبلغ ثلاثين ألف روبــل صبّها كلها في المال المجموع من أجل هجرة «الدوكوبور» على كندا. وعندما جُمع المبلغ المطلــوب بفضل مساعدات شتّى، أبحــر المسيحيون المضطهدون إلى جزيــرة قبرص أولاً، ومن قبرص إلى كندا حيث استطاعوا أن يستأنفوا مجــرى حياتهم المُلهَمة والعاملــة، وإن لم يخلُ ذلك من خصومات مع السلطــات الكنديّة، لأنّهم كانوا يرفضــون أن يخضعوا للزّواج المدنيّ وأن يسجلوا المواليد الجدد.

لكــنّ تولستــوي استطاع أن يكون مسروراً، فقــد أمكنه أن يُنجح تلك المهمة العظيمة التي فرضها على نفسه؛ بل إن تلك المهمة أتاحت له أن يُنهي عملاً أدبياً واسعاً كان سيظل لولاها ناقصاً، قابعاً في أدراجه.

٤. عمــل الرسام ليونيــد باسترناك والد الكاتــب المعروف رسومــاً للرواية أعجبت تولستوي كثيراً.

وهكذا، فإن رواية البعث مرتبطة بصراع الكاتب ضد تعسّف النظام الرّجعيّ، وضدّ التّعصّب السياسي والدّيني، وضدّ القضاء الإنسانيّ، وهو قضاء أعمى في الغالب، وضد نظام العقوبة ونظام النفي، وباختصار ضد شتّى تنظيمات الدولة. لكن إيمان المؤلف قد صيغ هذه المرة صياغة روائية قويّة، حتّى أنه كتب إلى تشيرتكوف قبل إنجاز الرواية: «أنا مشغول بالبعث، ولا أعلم إن كان هذا شيئاً حسناً أم سيّئاً، فآمل أن أعرض في هذه الرواية الكثير من الأشياء الهامة. ولذلك أراني مندفعاً؛ ويبدو لي أحياناً أنها ستحتوي على الكثير مما هو حسنٌ ومما هو ضروري، وأحياناً أخرى أنني انسَقْتُ وراء الهوى». إن هذا الكتاب الذي كُتب فعلاً بهوىً، تحت وطأة الأحداث، قد يذكّر، من خلال بعض السمات، بآنا كارينينا. وإن كانت ألوانه أكثر قتامة وأشد مأساويّة، ففي «آنا كارينينا» نجد ليفين الذي يمثّل تولستوي ذلك الزمان، يعارض بقوة مجتمعاً تبيّن فيه علامات الإنحلال، مستنداً في هذه المعارضة إلى طبقة الفلاحين الفقراء، وإلى حاملي العقيدة المسيحية البسطاء، ويكاد يتوصل إلى ذلك التوازن بين جو الحياة العائلية الهادئ، في أحضان الطبيعة، وبحثه المستمر عن المثل الأعلى. لكن تولستوي، بعد ربع قرن من الزمان، وبعد أن تمرّس بالتجارب الدينية والأخلاقية التي نعرفها، يبدو معادياً بصراحة لكل شكل من أشكال تنظيم الكنيسة أو الدولة، ويدخل في حرب مكشوفة معهما. أما الناطق الجديد باسمه «نيكليودوف» فهو مثل ليفين، موضوع بين عالمين: عالم العهد القديم الذي بلغ غاية الإنحطاط هذه المرة، وعالم الفلاحين الذي يمزج به تولستوي المنفيين والمحكومين بالأشغال الشّاقّة الذين أثار مصيرهم شفقته. واللوحة التي يقدّمها منذ الآن عن الطبقة

التـي في السلطة لوحةٌ سلبيّة تماماً. إن ذلك مبالغ به أحياناً لكنه قوي: القضـاةُ الذين يؤدون عملهم وهم لا يفكّرون إلا في لذّاتهم الصغيرة، المحلّفـون الضيّقو الفكر الذين يرتكبون خطأ مميتاً في حكمهم، عضو مجلس الشيوخ «المادي» الذي يرفض العمـل على نقض الحكم، لأنه يأبـى كل تظاهر بالشعور الديني، الوزير القـديم الذي تحرّر من أبسط قواعـد الأخـلاق، المحامي الشهـير الوقح الذي لا يهمـه شيء سوى المال، الأمـير «كورتشاغين» المنحط الذي لا توحـي ابنته، بفساتينها المكشوفـة الصدر، سوى «العار والإشمئزاز». لوحات كثيرة لا سبيل إلى نسيانهـا، لقـد صرّح تشيرتكـوف بعد قراءة الروايـة: «إنها عمل فنـي رائـع، وأقلّ الأشياء إثـارة للإهتمام هو ما يتّصـل بالعلاقات بين «نيكليودوف» و«كاتيوشا»، وأكثرها أسراً للنفس الأمراء والجنرالات والفلاحون والسجناء والمفتشّـون. فالمشهد في منزل الجنرال المناجي لـلأرواح الـذي يقود حصن «بطرس وبولس»، أعـدتُ قراءته وفي نفسـي رعشةٌ لفرط ما هو جيّـد، والسّيّدة كورتشاغين على كرسيّها؛ والفلاح، زوج فيدوسيا! الفلاح يقول: إن الجدة «مؤثّرة» لكن ريشة تولستوي هي المؤثرة، في الحقيقة».

العمـل، منذ بدء الرواية، واحـدٌ ومركّزٌ، والنّظر إلى التّباين البدئي بـين نهوض الأمـير الغني «دمـتري» وعـالم المساكين الفقـراء الذين يُجَـرّون إلى القضـاء. وعندما يتوب «نكليـودوف» عن خطيئته، عن جريمته التي ظلت بدون عقـاب، فإنه سيتحوّل داخلياً وسيجذبه عالم القاع ذاك وسيكشف فيه كائنات أفضل من المجتمع القديم الذي أدانه وأكـثر إنسانية منه. والتناقض بين العدالـة الإجتماعيّة، الإنسانية وبين العدالـة الإلهية –التي تأمر بالغفران حتى سبع وسبعين مرّة– هو الذي

يكـوّن فكرة الرواية الأصلية. إن تولستـوي يكتشف، بواسطة بطله، عالماً يجهله كلياً حتى تلك اللحظة: عالم الثّوار الذين يرسم لهم صوراً حية تنمّ على الإعجاب بما لديهم من روح الإنكار للذات، والتضحية.

علـى أنه لا يبلغ حدود اتّبشـير بالثورة ، ففي الفصل الأخير، يقتنع «نيكليودوف»، وهو يعيد قراءة الإنجيل، أن الحب المسيحي هو الذي يمكـن أن يجـدّد العالم، أمّا مـا يستنكره بلا تحفّظ فهـو مجتمع زمانه، مجتمـع «أواخر القـرن» الذي يـرفّ فوقه ظـلُّ «بوبيدونوزتسوف» المشـؤوم –المتمثّل هنا في ملامح توهوروف– ذلـك الرجعي البليد، والمستشـار الرّئيسـيِّ للإسكنـدر الثّالث ولنيقولا الثّـاني الذي وضع الكنيسـة في خدمة الدولة وحدها ليس غير، وأوحى بالجملة المأساوية التالية: «يجب أن تجمّد روسيا قليلاً لكي لا تتعفّن». وهنا يغدو صوت تولستوي بغيةَ الإحتجاج، رهيباً.

إن «البعـث» منتشـرة اليـوم في جميع أرجـاء الإتّحـاد السّوفياتيّ باعتبارهـا مرافعةً ضـدّ العهد القديم، ولاشكّ أن هـذه الرواية تحتوي علـى الكثير من الصفحات المعتمة، القاسيـة، لكنها تحتوي أيضاً على صفحات أخرى تفيض بالغنائية مثل استذكار ليلة الفصح، تلك الليلة العفيفـة التي عاشهـا تولستوي، من غير شك، والتـي تعود إلى ذاكرة «نيكليودوف»، بجمالها الشفّاف.

الكسندر. ف. سولوفييف

القسم الأول

«حينئـذ تقدّم بطرس وقال له: يا سيّد، كم مرة يخطئ أخي إليّ وأغفر له؟ أإلى سبع مرات؟ فقال له يسوع: لا أقول لك، إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرّة سبع مرّات»

متى ١٨: ٢١ –٢٢

"مـا بالُـك تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك؟... والخشـبة التي في عينك لا تنتبه لها".

متى ٧: ٣

"من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"

يوحنا ٨: ٧

"ليس تلميذ أعظم من معلّمة، كل تلميذ كامل يكون كمعلمه"

لوقا ٦: ٤٠

-١-

عبثـاً كان مئـاتُ آلاف البشـر المزدحمين في حيّـز صغير، يبذلون جهدَهـم ليشوّهوا الأرض التي يعيشون عليهـا؛ عبثاً كانوا يسحقون ترابهـا بالحجـارة لكي لا يَنْبت فيهـا شيء؛ عبثاً كانـوا يقتلعون حتى أصغـر قشة مـن عشب؛ عبثـاً كانوا يملـؤون الهواء بدخـان البترول والفحم؛ عبثاً كانوا يقطعون الأشجار؛ عبثاً كانوا يطردون الحيوانات والطيـور: لقد كان الربيـع، حتى في المدينة، مايزال هـو الرّبيع ، فقد كانت الشّمس تسطع؛ وأخذ العشب الذي عادت إليه الحياة ينمو من جديد، لا على مرجات الشّـوارع العريضة فحسب، بل على أرصفة الشوارع؛ ونشرت أشجار البتولة والصفصاف والكرز البري أوراقها الرطبـة الأرجـة؛ ونفخت أشجـار الزيزفون براعمها التـي أوشكت أن تتفتّـح؛ وشرعت غربـانُ الزرع وعصافير الـدوري والحمائم تبني أعشاشهـا بابتهاج؛ وكان النحل والذبـاب يدوّي على الجدران، وقد فتنَـه أن يجد مرة أخرى دفء الشمس البديع. كان كل شيء غارقاً في البهجة: النباتات والطيور والحشرات والأطفال. الناس وحدهم ظلّوا يَخْدعون ويُتْعِبون ويعذّبـون الآخرين. الناس وحدهم كانوا يرون أن مـا هو هام ومقدّس ليـس صبيحة الربيع هذه، ولا هذا الجمال الإلهي

للكون، الجمال الذي خُلِقَ من أجل فرح جميع الكائنات الحيّة والذي يُهيّئُهـا جميعاً للسلام والوحدة والمحبـة؛ بل إنهم كانوا يرون المقدَّس والهام ما اخترعوه هم أنفسه ليسيطر بعضهم على بعض.

وهكـذا، ففـي مكتب السجـن الإقليمـي، لم يكن سحـرُ الربيع ومباهجه التي مُنحها البشر والحيوانات، هي ما يُعتبر هامّاً ومقدّساً بل كان الهـام والمقدّس أن مستخدمي هذا المكتـب تلقّوا عشيةَ البارحة، ورقـةً مختومـةً ومرقّمة تُخطرهـم بوجوب نقل ثلاثـة متهمين، رجل وامرأتين، كلٌّ على انفـراد، في صباح ٢٨ نيسان الساعة التاسعة، إلى قصر العدل، لمحاكمتهم فيه. ووفقاً لهذا البلاغ دخل الحارس العجوز، في ٢٨ نيسـان في الساعـة الثامنة صباحاً، إلى ممرّ قسـم النساء، وهو ممر مظلم ونتن. وسرعـان ما أقبلت عليه، من الجانب الآخر من الممر، المشرفةُ على قسم النساء، وهي امرأة عليلة المظهر، رمادية الشعر، تلبس سترة ذات كُمَّيْنِ طويلين مُزَيَّنين بالأشرطة، وتلفّ قامتها بنجاد أزرق.

سألت:

– أجئت تطلبُ «ماسلوفا»؟

وسرعـان ما اتجهـت، بصحبة الحارس، إلى أحـد الأبواب العديدة التي تفتـح على الممر. أدخل الحارس مفتاحـاً ضخماً في قفل الباب، فصرّ الحديـد صريراً، وانشقَّ الباب، وخرجت منـه رائحة نتنة أخبث من رائحة الممر..

صرخ الحارس الذي أعاد إغلاق الباب:

– ماسلوفا! إلى قصر العدل!

ووقف جامداً ينتظر المرأة التي ناداها.

على خطوات من هذا المكان، في فناء السجن، كان بوسع المرء أن يتنفّس الهواء النقي المنعش الذي حمله نسيم الربيع من الحقول، لكنّ الهواء في ممر السجن كان مُرهقاً وموبوءاً؛ كان هواءً أفسدتُه القذارة والرطوبة والعفونة، هواء لا يمكن لأحد أن يتنشقه دون أن يجتاحه، في الحال، حزن كئيب. تبيّنت المشرفة على القسم بنفسها من ذلك، وإن كانت قد تعودت هذا الهواء الموبوء. فما إن عادت من الفناء، ودخلت الممر حتى استبد بها الإحساس بالغثيان والنعاس.

كان الاضطراب شديداً، وراء الباب، في غرفة السجينات، كانت تُسمع الأصوات والضحكات ووقع الأقدام العارية.

صرخ الحارس العجوز وهو يشقّ الباب مرة أخرى:

– هيا، أسرعي!

بعد لحظات خرجت من الغرفة بعجلة امرأة شابة، قصيرة، لكنها رشيقة القوام، كانت ترتدي سترة رمادية فوق قميصها وجبتها البيضاوين. أما قدماها المغطاتان بجوربين من القماش فقد انتعلتا حذاء ضخماً من أحذية السجينات. وكان يلفّ رأسها منديل أبيض برزت منه بعض خصل الشعر الأسود الذي جعّدته بعناية. وكان وجهها كله مشوباً بذلك الشحوب الخاص الذي لا نراه إلا على وجوه الذين أقاموا زمناً طويلاً في مكان مغلق. لكن ذلك أبرز إبرازاً أشد بريق

عينيهـا الكبيرتـين السوداويـن اللتين كان في أحدهمـا شيء يسير من الحول، وهو بريق يتناقض مـع ذلك الشحوب الكامد للجلد. وقفت المرأة وقفة مستقيمة، وصدرُها العريض بارز إلى الأمام.

عندمـا بلغـت الممـر حنـت رأسهـا قليلاً، ثـم حدّقـت في عيني الحارس العجوز؛ ثـم استعدت لفعل ما ستُؤمَر به. وما إن هم الحارس بإغـلاق الباب حتى انشقّ مـن جديد وطلع منه وجـهٌ متجهّم. مجعّد لامـرأة عجـوز بيضاء الشعـر عارية الرأس. وأخذت هـذه العجوز تحـدث «ماسلوفا» بصوت منخفض. لكـن الحارس ردّها إلى الداخل وأغلـق الباب. حينذاك دنت «ماسلوفا» من كـوّةٍ مُحدثة في الباب بدا مـن جهتها المقابلة، على الفـور، وجه المرأة العجـوز. وسُمع صوتها المبحوح من خلال الكوة:

– علـى الأخص، لا تكثري الكلام، أصري على هذه النقطة. هذا كل ما يلزم!

فهتفت «ماسلوفا» متعجبة، وهي تهزّ رأسها:

– يـاه! هذه النقطة أو تلك، كله واحد! لن يقـع لي أسوأ مما أنا فيه الآن!

قال الحارس العجوز هازئاً ومزهواً بالنكتة التي خطرت له:

– لاشك أنه واحد لا اثنان! هيا، اتبعيني؛ امشي!

اختفـى رأس المرأة العجوز مـن الكوة، وتقدّمـت «ماسلوفا» في

الممر، ماشيـة بخطوتها الخفيفة خلف الحارس العجـوز. هبطا السلم الحجـري بحـذاء حجرات قسم الرجـال الموبـوءة والصاخبة، ومنها كانـت العيون المستطلعة ترقب مسيرتهما مـن خلال كوى الأبواب. وأخيراً وصلا إلى مكتب السجن. وكان فيه جنديان. بندقية كل منهما علـى كتفه، ينتظران السجينة ليقتاداهـا إلى قصر العدل. وكتب كاتُب المحكمـة شيئاً على ورقة مُشْربة برائحة التبغ. ومد الوثيقة إلى الجندي الذي دسّها في قفا كمّ معطفه. وبعد أن غمز رفيقه بطرف عينه وبشيء من الخبث وهو يشير إلى «ماسلوفا»، جاء فوقف إلى يمينها، بينما وقف الجندي الآخر إلى يسارها. وبهذا الترتيب خرجوا من المكتب، وعبروا فناء السجن الخارجي، واجتازوا الحاجز وبلغوا بلاط شوارع المدينة.

كان الحوذيـون، وباعـةُ الدكاكـين، والطبّاخـات، والعمـال والمستخدمـون يقفون عند مرور الموكب ليتأملـوا السجينة بفضول. وفكّـر كثيرون وهم يهـزّون رؤوسهـم: «إلى مثل هذا المقـام يُوصل سوءُ السـيرة! أما الحياة الكريمـة كحياتنا فهي أجـدى نفعاً!» ووقف الأولاد أيضـاً. لكن فضولهـم كان ممتزجاً بالرعـب. فبعد لأي كانوا يطمئنون إلى الفكرة التالية وهي أن مع هذه المجرمة حراساً يحرسونها يمنعونهـا مـن إيذائهم. وتقدم فـلاح يبيع الفحم في الشـارع، ورسم علامـة الصليب، وأراد أن يعطي السجينة كوبيكاً. فاحمرّت السجينة خجلاً، وخفضت رأسها، وهمست ببضع كلمات غير واضحة.

كانـت «ماسلوفا تبذل وسعهـا لتسير بأسرع مـا تستطيع، بعد أن فقـدت عادة المشي، وإذ أثقل قدميهـا حذاء السجن الضخم، فكانت تلاحـظ كل مـن ينظر إليها في الطريـق، دون أن تحـرّك رأسها، وهي

سعيدة بأن ترى نفسها موضعاً لمثل هذا الإهتمام. كانت تتنشق بلطف الهـواء الربيعـي، لدى خروجها مـن الجو الموبوء الـذي تركته، وعند مرورهـا أمام مخزن يبيع الطحين، وترتـع قربه الحمائم، مسَتْ بقدمها حمامة زرقـاء، فطارت الحمامـة ولامست أذن السجينـة، فأحسّت على خدّها بريح جناحيهـا. تبسّمت، لكنها ما لبثت أن تنهدت حين ارتدّت فجأة إلى الشعور المؤلم بوضعها.

× × ×

-٢-

كانت قصة السجينة «ماسلوفا» من أشد القصص ابتذالا. لقد كانت إبنة سفاح لفلّاحة، وكانت تساعد أمها على العناية ببقرات مزرعة تملكها عانسان إقطاعيتان. كانت الفلاحة غير المتزوّجة تضع طفلاً كل عام. وكما يقع غالباً في مثل هذه الحالة فإن الأطفال ما كانوا يولدون حتى يُعمّدوا ثم تُقلع أمهم عن إرضاعهم. كانوا يجيئون إلى هذا العالم دون أن تطلبهم؛ لم تكن بحاجة إليهم، وكانوا يضايقونها في عملها. ونتيجة لذلك فسرعان ما كان يموت هؤلاء الأطفال المساكين من الجوع. خمسة أطفال ماتوا على هذا النحو. أما الطفل السادس الذي حملت به من غجري عابر سبيل فقد كان بنتاً. لم تكن هذه الميزة لتمنع من أن يصيبها ما أصاب إخوتها الذين سبقوها لولا أن المصادفة قادت إحدى العانستين إلى الإسطبل لتوبخ خادماتها بصدد القشدة التي اشتمت فيها رائحة البقر. وفي الإسطبل، كانت الأم ممددة على الأرض وبجانبها مولود جميل مليء بالحياة وبالعافية. وبّخت السيدة خادماتها لأنهن أهملن القشدة وأيضاً لأنهن آوين، في الإسطبل، امرأة على وشك الوضع. لكنها عادت فطابت نفساً، لدى رؤية الطفل، بل لقد عرضت نفسها لتكون اشبينةً له.

عمّـدت الطفلة إذن، ثم أخذتها الشفقة بها، فأعطت الأم شيئاً من الحليـب وبعض النقود لكي تطعم الصغيرة، وهكذا ظلت الطفلة على قيد الحياة، ولذلك سمّتها السيدتان: «المُخلّصة».

كان عمـر الطفلـة ثـلاث سنوات عندمـا مرضت أمهـا وماتت. وبمـا أن جدَتها الراعيـة رأت فيها عبئاً عليها، فقـد حملتها السيدتان إلى القصـر. كانـت بعينيها السوداويـن الكبيرتين طفلـة بالغة الحيوية واللطافـة، واستمتعـت السيدتـان برؤيتهـا بينهمـا. كانـت صغرى الأختـين وأكثرهما رأفـة تُدعى «صوفيا ايفانوفنـا»: اشبينة الطفلة أما الكـبرى «ماريا إيفانوفنـا» فكانت أَميـل إلى إظهـار القسوة. كانت صوفيا ايفانوفنا تُلبس الصغيرة، وتعلّمها القراءة، وتحلم بأن تجعل منها فتـاة مثقفة. أما مـاري ايفانوفنا فكانت تقول: إنه يجب أن تجعل منها خادمـة، وصيفةً جميلةً، ولذلـك كانت تبدو متشـددة. كانت تُلقي أوامرهـا عليها، وتضربها أحيانـاً، عندما يسوء مزاجُهـا. وبفعل هذا التأثـير المزدوج غدت الطفلـة، حين كبرت، نصـف وصيفة ونصف سيـدة حتـى أن الاسم الـذي أُطلق عليهـا كان يتلاءم مع هـذه الحالة الوسيطـة. فلم تُدعَ «كاتكا» ولا «كاتيانـكا»، بل كاتيوشا[٥]. كانت تخيـط، وترتّب الغـرف، وتنظف بالحـوّار الصور المقدسـة، وتقدم القهـوة، وتُعنى بالغسيل الخفيف، ويُسمح لها أحياناً بمرافقة سيدتيها، والقراءة لهما.

طُلبت للزواج مرات، لكنها رفضت. كانت تشعر أن الحياة ستغدو

٥. كاتـكا، كاتيانكا، كاتيوشـا: كل من هذه الأسماء تصغير كاترين. في كاتكا شيء من التحقير، وفي كاتيانكا شيء من التحبب، أما كاتيوشا فهو أقل تحبباً.

صعبة عليها إذا اقترنت بعامل أو بخادم، بعد أن نعمت بحلاوة العيش مع سيدتيها.

عاشت على هذا النحو حتى السادسة عشرة. وعندما دخلت في السابعة عشرة، قَدم إلى بيت السيدتين ابن أخيهما وكان قد قضى من قبل صيفاً كاملاً عند عمّتيه عشقته فيه الفتاة دون أن تعترف بذلك لأحد حتى ولا لنفسها. كان ذلك الشاب العظيم الثراء ضابطاً. وكان هدف زيارته الجديدة أن يستريح بضعة أيام، في طريقه، قبل أن يمضي مع فوجه إلى محاربة الأتراك[٦]. وفي اليوم الثالث، في عشية سفره، أغوى كاتيوشا. وسافر في اليوم التالي بعد أن دسّ في يدها ورقة بمائة روبل وبعد ثلاثة أشهر من سفر الشاب أيقنت أنها حامل.

منذ هذه اللحظة، بدا لها كل شيء عبئاً ثقيلاً عليها. وانصرفت إلى الوسائل التي تُتيح لها الإفلات من العار الذي ينتظرها، وصارت تخدم سيدتيها على مضض وبتهاون.

لم يطل الأمر بالسيدتين لتلاحظا ذلك. ووبّختها ماريا ايفانوفنا مرة أو مرتين، لكن السيدتين رأتا نفسيهما مضطرتين في نهاية الأمر إلى «الانفصال عنها» -بحسب تعبيرهما الأنيق- وهذا يعني أنهما ألقتا بها خارج البيت. عند خروج كاتيوشا من بيتهما اشتغلت وصيفة لدى أحد مفوضي الشرطة، وكان رجلا تجاوز الخمسين أخذ منذ الشهر الثاني يغازلها. وفي ذات يوم بدا أشدّ مراودة من عادته، فنعتته

٦. زيارة نيكليودوف هذه تقع إذن في نيسان عام ١٨٧٧. في الوقت الذي أعلنت فيه الحرب، وتقع أحداث الرواية بعد ثماني سنوات أي في عام ١٨٨٥.

بالفظاظـة والحقارة ودفعته عن نفسهـا بقوة حتى سقط على الأرض. فطُـردت بسبب وقاحتها. كان وقت الوضع يقترب فلم يكن بوسعها أن تبحـث عن عمـل آخر. ولجأت بالأجرة إلى منـزل عمة لها، أرملة تديـر حانة، وتعمل قابلة بين الحـين والحين. وتمّ الوضع دون كبير ألم. لكـن القابلة التي جاءت مـن عند امرأة مريضـة في القرية حملت إلى كاتيوشا حمّى النفاس. أما ابنها، وكان صبياً صغيراً مريضاً أيضاً، فقد أُرسـل إلى ملجأ لم يكد يصـل إليه حتى مات، حسب أقوال المرأة التي أخذته.

أما من حيث ثروة كاتيوشا فكان كل ما تملكه مائة وسبعة وعشرين روبـلاً: سبعة وعشرين ربحتها من عملهـا، ومائة الروبل التي أعطاها إياهـا مُغويهـا. وعندمـا خرجـت من بيـت القابلة، بقـي معها ست روبـلات. كانـت عاجزة عـن الاحتفاظ بالمـال: كانت مبـذّرة على نفسهـا، وفضلاً عن ذلك فقد كانـت تعطي كل من يطلب منها المال. فالقابلة أخذت منها أربعين روبـلاً أجرة السكن عن شهرين؛ وذهب خمسـة وعشرون روبلاً لتسفير الصبي إلى الملجأ. وابتزت منها القابلة أيضاً أربعين روبلاً كقرض لتشتري بها بقرة؛ أما العشرون روبلاً الباقية فقد أنفقتها كاتيوشا دون أن تعرف كيف، في شراء أشياء لا فائدة منها، وفي شـراء الهدايا. وهكذا فعندما شفيتْ ألْفتْ نفسها صفر اليدين من المال، ومضطرة إلى البحث عن عمل. ووجدت ذلك العمل لدى أحد حراس الأحراج. كان متزوجاً، لكنه فعل منذ أول يوم ما فعله مفوّض الشرطـة، أخذ يغازل خادمته. وحاولت هذه. منذ البداية، أن تتخلص مـن ملاحقاته، لأنها كانت حريصة على الاحتفاظ بعملها. لكنه كان أكثر تجربـة ومكراً منها، وكان، على الخصوص، السيد الذي يستطيع

أن يأمرها بما يشاء. وبعد أن ارتقب اللحظة المناسبة، ارتمى عليها وامتلكها. و لم تلبث زوجته أن علمت بالأمر. وذات يوم، فاجأت زوجها وحده في الغرفة مع كاتيوشا، فضربت الخادمة على وجهها حتى أدمته، وصرفتها دون أن تدفع لها أجرها.

عند ذاك اتجهت كاتيوشا إلى المدينة، إلى منزل عمة لها كان زوجها مجلّداً. كان وضع هذا الزوج حسناً فيما مضى، لكنه حين فقد زبوناته، غدا سكّيراً ينفق في الحانة كل ما يقع بين يديه من مال. أما الزوجة فكانت تملك مغسلاً تتيح لها أرباحه الهزيلة تغذية أولادها والإنفاق على زوجها السكير. وعرضت على كاتيوشا أن تعلّمها مهنتها. لكن الفتاة ترددت، حين رأت الحياة الشاقة التي تعيشها العاملات الغاسلات عند عمتها. وآثرت أن تتقدّم بطلب إلى أحد مكاتب الاستخدام تلتمس فيه العمل كخادمة. في هذه المرة، ذهبت إلى منزل أرملة تعيش مع ولديها الشابين. لكن بعد نحو أسبوع من دخولها هذا البيت، أخذ الابن الأكبر، وهو طالب في السنة السادسة، طرّ شارباه، يهمل دروسه ليغازل الخادمة الجميلة. فألقت الأم الغلطة كلها على كاتيوشا وطردتها.

لم تجد كاتيوشا عملاً جديداً. وذات يوم صادفت في مكتب الاستخدام الذي رجعت إليه سيدة يداها العاريتان محمّلتان بالخواتم والأساور. وما أن علمت السيدة بوضعها حتى أعطتها عنوانها ودعتها إلى المجيء إليها. وذهبت «ماسلوفا» إليها. فاستقبلتها تلك السيدة أحسن استقبال، وقدّمت لها الكثير من الحلوى والنبيذ الحلو، وأرسلت خادمتها إلى المدينة ومعها رسالة.

وفي المساء رأت كاتيوشا رجلاً طويل القامة. ذا شعر طويل أشيب، ولحيـة دبّ فيهـا الشيـب، يدخـل الغرفـة ويجلس بجانبهـا ثم أخذ يتفحّصها ويمازحهـا وعيناه تلتمعان. وعلى شفتيـه ابتسامة. فأخذته السيـدة وانتحت به برهـة في الغرفة المجـاورة. واستطاعت كاتيوشا أن تسمع هـذه الكلمات: «إنها ماتزال غضّـة، وهي تأتي مباشرة من الريـف». ثم دعتهـا السيدة وقالت لها: إن هـذا السيد الكهل كاتب وأنـه يملك الكثير من المال، وأنـه سيعطيها كل ما تطلب لو استطاعت أن تنـال إعجابه. والواقع أنهـا أعجبته، وأن الكاتب قد نقدها خمسة وعشرين روبلاً، ووعدها بأن يراها كثيراً. وسرعان ما أنفقت كاتيوشا ذلـك المال. فقد أرسلت جزءاً لعمتها الغسّالة هو أجرة إقامتها عندها؛ أمـا الباقـي فقد اشترت بـه فستاناً وقبعـةً وأشرطة، وبعـد بضعة أيام، أعطاهـا الكاتب أيضاً خمسة وعشرين روبلاً، ودعاها إلى أن تقيم معه في غرفة مفروشة.

وفي الغرفـة المؤثّثة التي استأجرها الكاتب لها، تعرفت «ماسلوفا» بموظـف في متجر، وهو فتى مرح يسكـن في الفناء نفسه. فأولعت به واعترفت بذلك للكاتب الذي تخلّى عنها من فوره. أما الموظف الذي وعدها بالزواج فقد سافر فجأة إلى «نيجني»، دون أن يقول لها شيئاً، وفي نيتـه أن يهجرهـا. وكان بودها لو تعيش وحدهـا في هذه الغرفة المؤثثة. لكن ذلك لم يُسمَـح لها: ذلك أن مفوّض الشرطة صرّح بأنها لا تستطيـع أن تفعل ذلـك إلا إذا طلبت البطاقـة الصفراء، وخضعت للكشف الطبي.

حينئـذ عادت كاتيوشا إلى منزل عمتها. وعندما رأتها هذه ترتدي فستانـاً حديثاً، وقبعةً جميلة، ومعطفاً من فرو. استقبلتها باحترام، ولم

تجـرؤ أن تعرض عليها الاشتغـال في مغسلها. ومنذ ذلك الوقت رأت أنها ارتقت إلى طبقة عليا من طبقات المجتمع. وكذلك فإن «ماسلوفا» نفسها، لم يكن ليخطر لها أن تشتغل في مشغل للغسيل. غاية ما كانت ترضـى به أن تقيـم موقتاً في غرفة عمتها. كانـت تنظر بشفقة مشوبة بالاحتقار إلى حياة الأشغال الشاقة التي تحياها، في المشغل، الغاسلات، وهـن ينهكن أنفسهن بفرك الغسيل وكيّـه، في درجة من الحرارة تبلغ الثلاثـين، والنافذة مفتوحة شتاء وصيفاً. في هـذه الفترة التي وصلت فيها كاتيوشا إلى أقصى الفاقة. وأعياها أن تجد حامياً واحداً لها، التقت قوّادة تصطاد الفتيات لبيوت الدعارة.

كانـت «ماسلوفـا» قد تعـودت التدخين منذ زمـن طويل. وفوق ذلـك فإنها أخذت تدمن الشـرب شيئاً فشيئاً، في الفـترة الأخيرة من علاقاتها مع الموظف التاجر. كانت الخمر تجذبها لا لأنها لذيذة الطعم فحسب، بل لأنها تلهيها عن واقعها، وبدون خمر كانت تحس بالغم، وبالعـار في الغالب، وكذلك حرصت تلك القـوّادة على دعوتها إلى مأدبـة هي وعمتها؛ ثم عرضت عليها، بعد أن أثملتها، أن تدخلها إلى بيـت فخم، أفضل بيت في المدينة، وزيّنت لها ضروب الرفاهية وفنون المزايـا في تلك الحيـاة التي ستحياها فيه. كان علـى ماسلوفا أن تختار بين أمريـن؛ فإما أن تختار عمل الخادمة المُـذل، فتعاني لجاجة الرجال وتنخرط في بغاء سري وموقت؛ وإما أن تختار وضعاً مضموناً وهادئاً، هـو البغاء العلني الذي يحميه القانـون ويُكافأ عليه بسخاء. فاختارت الأمر الثاني بطبيعة الحال. وبدا لها أنها تنتقم بذلك من الأمير مغويها، ومـن الموظف التاجر، ومن جميع الرجال الذين أساؤوا إليها. لكن ما أغراها على وجه الخصوص بهذا الاختيار، وهذا هو السبب الأساسي

لقرارها، كان الفكـرة التالية وهي أنها تستطيع أن تأمر لنفسها بجميع الفساتـين التي تحبّها، كمـا أكّدت لها تلـك المرأة القـوّادة. الفساتين المخملية والحريريـة المحبّبة. والحريرية الخالصـة وفساتين الرقص التي تكشف عن الكتفين والذراعين. وعندما تخيلت ماسلوفا نفسها وهي ترتدي فستاناً من الحريـر الأصفر الباهت المقّور، والمزخرف بالمخمل الأسود، لم تستطع أن تصمد، ووقعت العقد. وسرعان ما أمرت القوّادة بعربة وأخذتها إلى بيت «كيتايفا» الشهير.

منذ هذا اليوم بدأت، بالنسبة إلى ماسلوفا، تلك الحياة، حياة الخَرْق المستمر للقوانين الإلهية والبشرية، وهي حياة تحياها مئات آلاف النساء اليوم، لا بإذن السلطة الشرعية الحريصة على راحة الرعية فحسب، بل بحمايتهـا الفعلية أيضاً. إنها لحياة مخزيـة، فظيعة، تُفضي بتسعة أعشار هؤلاء النسوة إلى التقحُّل والعجز، وإلى الموت المبكر، بعد آلام مبرحة.

في الصبـاح وأثنـاء القسم الأكـبر من النهـار، هناك النـوم الثقيل بعد متاعـب الليل. وبين الساعـة الثالثة والرابعة استيقـاظ مُتعّب، في أغطية السرير المدنّسة، وجرعـات من المياه المعدنية ومن القهوة، وتمشٍّ في الغرفـة بالقميص أو بالمئـزر أو بثوب النوم، ونظـرات إلى الشارع من النافـذة ذات الستائر المغلقـة، ومشاجرات رخوة بـين النساء؛ ثم الاغتسـال والتزيـن وخنـق الجسد في مِشَـدٍّ مسرف الضيـق واختيار الفستان، والخصام مع صاحبـة البيت بهذا الصدد، ودراسة الأوضاع أمام المـرآة، وطلاء الخدّيـن بالمساحيق، وتكحيـل الرموش بالكحل؛ والموسيقـى والرقصـات والحلوى والخمـر والتبغ، ومعاشـرة الفتيان، والرجـال الناضجين، والمراهقين، والشيـوخ العاجزين، والمتزوجين؛ والعزّاب، والتجـار والسماسرة، والأرمن واليهـود والتتار، والأغنياء

والفقراء، والأصحاء والمرضى، والمخمورين والصاحين، والمتوحشين وأبناء الطبقة الراقية، والعسكريين والموظفين والطلاب، ورجال من جميع الفئات والأعمار والطباع. وصرخات وسخريات وضحكات وموسيقا، وتبغ وخمر، وخمر وتبغ وموسيقا، من المساء حتى الفجر. في الصباح وحده، الحرية والنوم الثقيل. وهكذا في كل الأيام، من أول الأسبوع إلى آخره. ثم في آخر الأسبوع، الكشف الطّبيّ، في مكتب الشرطة حيث يَجهْد رجال آخرون، هم موظفون في الدولة بثياب الأطباء، وقورون وقساة حيناً، ومستهزئون حيناً آخر، يجهدون في إذلال ذلك الإحساس بالحياء الذي وهبته الطبيعة كوقاية، لا للجنس البشري وحده، بل للحيوانات أيضاً. كان هؤلاء الموظّفون يستعرضون النساء، ثم يعطونهنّ بعد ذلك شهادة تسمح لهن بمتابعة الحياة نفسها أثناء الأسبوع الآتي. أو هكذا إلى ما لا نهاية، شتاء وصيفاً، في أيام الأعياد الكبرى. وفي أيام العمل على السواء.

عاشت «ماسلوفا» هذه الحياة طوال سبع سنوات، وغيّرت البيت مرتين، واضطُرت مرة إلى الإقامة في المستشفى. وفي غضون السنة السابعة –وكان عمرها حينئذ ستة وعشرين عاماً– وقع الحادث الذي استوجب أن تُقاد الآن إلى محكمة الجنايات، بعد سجن وقائي دام عدة أشهر، بصحبة كائنات مهنتها السرقة والقتل.

× × ×

-٣-

حين دنت ماسلوفا مع مرافقيها من قصر العدل، في نهاية المسيرة الطويلة، كان الأمير «دميتري إيفانوفتش نيكليودوف»، وهو نفسه الذي أغواها من قبل، يستيقظ في سريره الكبير ذي النوابض، والمغطّى بلحاف ناعم من الريش. كان يرتدي قميص الليل، وهو قميص من قماش هولندي مغضّن بأناقة على الصدر، ويتكئ على مرفقه بفتور، ويفكّر، وهو يشعل سيجارة، بما فعله البارحة وبما سيفعله هذا اليوم. وعادت إليه ذكرى سهرة البارحة التي قضاها في منزل آل كوراغين. كانا زوجين ثريين جداً، محترمين جداً، أشاع الناس جميعاً بأنه سيتزوج ابنتهما. دفعته الذكرى إلى التنهد. وبعد ذلك رمى لفّافته، ومدّ يده نحو علبة فضية لتناول لفافة أخرى، لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك، ورفع بشجاعة جسده المتثاقل، وأخرج من السرير قدميه البيضاوين اللتين تناثر عليهما الشعر، واحتذى بهما خفّيه. ثم غطى كتفيه العريضتين بمبذل حريري ومضى بخطاً ثقيلة وسريعة إلى حجرة الاغتسال المجاورة. وهنا شرع ينظف أسنانه المرصّصة في عدة مواضع، بعناية وبمسحوق خاص؛ ثم شطفها بسائل طبّي معطّر؛ ثم دنا من مغسلة المرمر وغسل يديه بصابونة معطّرة، مجتهداً على

الخصوص في تنظيف أظافره وفركها. وعندما انتهى من ذلك، فتح ماء المغسلة بقوة، وغسل وجهه وأذنيه وعنقه. وحينئذ انتقل إلى حجرة ثالثة أقيم فيها طقم الرشاشات: فأنعش دفق الماء البارد جسده القوي العضلات والممتلئ شحماً. وبعد أن جفف جسمه بمناشف اسفنجية، بدّل قميصه، واحتذى حذاءً لماعاً كالمرآة، وجلس أمام المرآة، وأخذ يمتشط بمجموعتين من الفراشي، مشط أول الأمر لحيته السوداء، ثم مشط شعره الذي غدا نادراً في أعلى رأسه. كانت كل الأدوات التي استخدمها لزينته: الثياب الداخلية والخارجية، الحذاءن ربطة العنق، الدبابيس، أزرار الأكمام، كل ذلك كان من الصنف الأول، كان شديد البساطة، جذّاباً للنظر، بالغ المتانة وباهظ الثمن.

انتهى نيكليودوف من ارتداء ملابسه، دون عجلة؛ ثم قصد إلى قاعة الطعام، وهي غرفة طويلة اشتغل ثلاثة رجال أشداء، في تلميع أرضيتها الخشبية، عشية البارحة. وفي هذه القاعة صوانٌ ضخم للسفرة من السنديان، ومائدة لا تقل ضخامة عنه، وهي طاولة من السنديان أضيفت إليها وصلة: وعليها مسحة رسمية، بقوائمها الأربع المحفورة والمتباعدة، محاكية شكل قوائم الأسد. وعلى هذه الطاولة المغطاة بغطاء ناعم ومنشى، ومزيّن بعقد ضخمة في زواياه، وُضعت غلاّية فضية مليئة بالقهوة الأَرجة، وسكّرية فضية، ووعاء للقشدة وسلّة تحتوي على أرغفة صغيرة طازجة، وعلى الخبز المحمّص والبسكويت. وأخيراً وضع بقرب الشوكة والسكين، بريد الصباح: الرسائل والصحف وكراس من «مجلة العالمين».

كان نيكليودوف يستعد ليفضّ بريده، عندما دخلت قاعة الطعام

من الباب الذي يطلّ على البهو، امرأة بدينة، متوسطة العمر وهي، في ثياب الحداد، وعلى رأسها قبعة من الدنتيلا. كانت هذه هي «اغرافينا بيتوفنا» وصيفة الأميرة العجوز، أم نيكليودوف التي ماتت قبل زمن في هذا البيت. وقد بقيت الوصيفة قرب الابن بصفتها مدبّرة لشؤون البيت.

أقامت أغرافينا بيتروفنا في الخارج، عدة مرات، إقامات طويلة مع أم نيكليودوف: كان لها مظهر السيدة وطرائقها. وقد سكنت في منزل آل نيكليودوف منذ الطفولة وعرفت دميتري إيفانوفتش، عندما لم يكن سوى الطفل «اماتينكا»:

– طاب يومك، يا دميتري إيفانوفتش!

– طاب يومك، يا أغرافينا بيتروفنا!

ثم استفهم نيكليودوف بلهجة المزاح:

– ما الجديد؟

قالت اغرافينا بيتروفنا وهي تمد رسالة وتبتسم ابتسامة ذات مغزى:

– هذه رسالة لك، حملتها وصيفة كور تشاغين منذ زمن طويل، وهي ماتزال تنتظر عندي.

أجابها نيكليودوف وهو يتناول الرسالة:

– حسناً، سآتي في الحال.

لكنه رأى ابتسامة أغرافينا بيتروفنا فاربدّ وجهه.

كانت ابتسامــة أغرافينا بيتروفنا تعني أنها تعلم أن الرسالة تأتي من الأميرة الشابة كورتشاغين، وكانت تظن أن سيدها سيتزوج بها. لكن هذا الافتراض لم يكن يروق لنيكليودوف.

– قولي للوصيفة أن تنتظر!

غــادرت أغرافينا بيتروفنا الغرفة بمهابة، و لم تَنْس، قبل خروجها أن تُعيد فرشاة منسيّة على الطاولة إلى موضعها.

فض نيكليودوف المغلّف المعطــر وفتح الرسالة المكتوبة على ورق سميك رمادي بخط دقيق وغير منتظم:

«قيامــاً مني بالمهمة التي أخذتُها على عاتقي وهي أن أكون مذكّرةً لــك، فإني أذكّرك بأنه ينبغي لك في هــذا اليوم، ٢٨ نيسان، أن تكون بــين محلفي محكمة الجنايات. وبالتالي، فسيكــون من المستحيل عليك أن تذهــب معنا ومع كولوســوف لرؤية معرض اللوحات كما وعدتنا أمســ بخفتك المعتــادة. إلا إذا شئت أن تدفع لمحكمة الجنايات غرامة ثلاثمائــة الروبل التــي تأباها على جوادك. تذكــرتُ ذلك أمس، بعد ذهابك، فلا تنسَ!»

بر. م. كروتشاغين

وعلى الصفحة الأخرى كُتب:

"تقول لك أمي إننا ننتظرك على العشاء، فتعال بدون إبطاء في أية ساعة شئت".

م.ك

قطب نيكليودوف بين حاجبيه. لقد كانت هذه البطاقة تتمة للحملة التي شرعت بها قبل شهرين من حوله. الأميرة كورتشاغين، لتُحكم لفّه بالحبائل التي يغدو من الصعب فكّها. ومن جهة أخرى، ففضلاً عن ذلك التردد الذي يشعر به، أمام الزواج، الرجال الذين بلغوا سنَّ النضج وتعودوا العزوبة، وامتنعوا، فوق ذلك، على الغرام، كان هناك أيضاً دافعٌ آخر يمنعه من إعلان رغبته في الزواج، حتى لو صمّم على ذلك الزواج. هذا الدافع لم يكن له علاقة بكون نيكليودوف قد أغوى كاتيوشا قبل ثماني سنوات ثم هجرها: وهو أمر لم يكن يحبّ التفكير فيه. وعلى كل حال فلم يكن يخطر بباله أن ذلك يحول دون زواجه بالأميرة الشابة. لقد جاء امتعاضُه من أن له علاقات سرية مع امرأة متزوجة؛ والحقيقة أنه قرر، ومنذ أمد قريب، أن يفصم هذه العلاقة، لكن عشيقته أبت أن تعترف بذلك الفصم.

كان نيكليودوف خجلاً جداً مع النساء؛ ولقد أوحى ذلك الخجلُ إلى "ماريا فاسيليفنا"، وهي زوجة أحد مارشالات النبلاء، بالرغبة في إخضاعه. فجرّته، بالفعل، إلى علاقة كانت تغدو من يوم إلى يوم أكثر استغراقاً له، وأشد ثقلاً على نفسه. في البدء، لم يستطع نيكليودوف أن يقاوم الإغراء، و لم يستطع، فيما بعد، عندما أحس بأنه آثم تجاه عشيقته، أن يعزم على قطع علاقاته بها دون أن ينال موافقتها المسبقة. أما هي فبدلاً من أن توافق قالت له: إنه لو هجرها الآن وقد ضحّت له بكل شيء، فلسوف تقتل نفسها.

كان في بريد نيكليودوف، هذا الصباح، رسالة من زوج عشيقته؛ عرف الأمير ذلك من الخط والخاتم. فاحمرّ خجلاً وأحس بانتفاضة

القـوة التي يحسّها دائماً عند دنـوّ الخطر، لكن انفعاله هدأ عندما فتح الرسالة. ذلك أن زوج "ماريـا فاسيليفنا" مارشال النبلاء في المقاطعة التـي فيها أعظم أملاك أسـرة نيكليودوف، كتب إلى الأمـير ليبلّغه أن جلسـة استثنائيـة للمجلس الذي يرأسـه ستُفتتح في نهايـة أيار؛ وهو يرجوه، أن يحضر بكل تأكيد، ويشارك فيها لكي يسانده، لأن النقاش سيتناول مسألتين خطيرتين، قضية المدارس ومسألة الطرق بين القرى. وهو يتوقع معارضةً شديدة من الحزب الرجعي في هاتين المسألتين.

كان هـذا المارشـال، بالفعـل، متحـرراً؛ وكان يناضـل مع بعض المتحررين من شاكلته، ضد الرجعية التي أخذت تَنْزع إلى تدعيم ذاتها في عهـد الاسكندر الثالث. وكان هذا النضال يستأثر به بحيث لم يبق لديه وقت ليرى أن امرأته تخدعه.

تذكّـر نيكليودوف قلقـه القديم؛ تذكّر كيف تخيّـل ذات يوم، أن الزوج اكتشف كل شيء، فهيّأ نفسه للمبارزة، ونوى أن يطلق النار في الهـواء. واستعاد في فكره مشاحنته مع عشيقتـه، عندما انتابها اليأس ووثبـت إلى الحديقة وجـرت إلى المستنقع لتُغرق نفسها فيه. وفكّر في نفسـه: "لا أستطيع أن أذهـب إلى تلك الجلسة في هذا الوقت، ولا أن أباشـر شيئاً قبل أن يأتيني جوابهـا". وكان قد كتب إلى عشيقته رسالة حاسمة يعترف فيها بأنه مذنب، ويصرح بأنه مستعد للتكفير عن ذنبه، لكنـه أنهى الرسالـة قائـلاً: إن علاقاتهما يجب أن تنتهـي إلى الأبد، وذلـك لخيرها هي. وعلى هذه الرسالـة كان ينتظر الرد الذي لم يأت. بـدا له عدم الرد فألاً حسناً. فلـو أن عشيقته لم ترضَ بالقطيعة لكتبت إليـه منذ زمن بعيـد، أو لجأت هي نفسها، كما فعلـت ذلك من قبل.

ولقد سمع أن أحد الضباط يغازل ماريا فاسيليفا؛ فآلمته الغيرة من هذا المنافس، لكن ذلك أفرحه، في الوقت نفسه، إذ منحه الأمل بإمكان الانعتاق من هذا الكذب الذي ثَقُل عليه.

رسالة أخرى وجدها نيكليودوف في بريده آتية من الوكيل الرئيسي لأملاك أمه التي آلت إليه تركتُها منذ بعض الوقت. كتب إليه هذا الوكيل يخبره بأنه يجب أن يتوجه إلى أملاكه ليحصل على إثبات حقوقه في الإرث، وينظّم إدارة الأملاك المذكورة: فإما أن يفعل ما فعلته المرحومة الأميرة في حياتها، وإما أن يفسخ العقود ويستردّ من الفلاحين جميع الأراضي التي استأجروها، وهو ما نصح به الوكيل أمه من قبل. وكان الوكيل يؤكد في رسالته أن الاستثمار المباشر لهذه الأراضي أكثر نفعاً بما لا يُحصى، ويعتذر عن التأخر بإرسال الريع ومقداره ثلاثة آلاف روبل هي حصة الأمير: وسيُرسَل إليه هذا المبلغ في البريد المقبل. ومردُّ هذا التأخر أن الوكيل يجد أعظم المشقات في تحصيل المال من الفلاحين الذين بلغت بهم قلةُ الوجدان حدّاً اضطرّوه إلى استخدام القوة ليدفعوا ما عليهم.

سرّتْ هذه الرسالة نيكليودوف وساءته في الوقت نفسه، لقد سُرَّ إذ أحسّ بنفسه مالكاً لثروة أعظم من الثروة التي امتلكها حتّى الآن، ولكنّه تذكّر، من جهة أخرى، حين تحمّس في مطلع شبابه، بما في الشباب من كرم وعزم، لنظريات سبنسر وهنري جورج الإجتماعية، إنه لم يفكّر فقط في أن الأرض لا يمكن أن تكون غرضاً للملكية الفردية، و لم يعلن ويكتب عن ذلك فقط، بل إنه أعطى الفلاحين ملكية صغيرة ورثها عن أبيه، وذلك لكي يطابق بين أفعاله ومبادئه.

والآن بعد أن جعل منه موتُ أمه ملاّكاً كبيراً، ألفى نفسه بين خيارين: إما أن يتنازل عن جميع أملاكه كما فعل قبل عشر سنوات عندما تنازل عن مائتي هكتار ورثها عن أبيه؛ وإما أن يضع يده على أراضيه فيعترف بذلك على نحو ضمني وصريح بأن المبادئ التي دافع عنها قديماً خاطئة وكاذبة.

كان الاختيار الأول مستحيلاً، بالنسبة إليه، من الناحية الفعلية، لأن أملاكه هي كل ثروته. والعودة إلى الخدمة أمر لم يكن ليقدم عليه؛ فقد ألفَ حياةَ الفراغ والترف كثيراً حتى غدا عاجزاً عن التفكير في الإقلاع عنها. ثم إن التضحية لا جدوى منها. ذلك أن نيكليودوف لم يعد يجد في نفسه لا قوة القناعة ولا العزم اللذين صاحباه في شبابه.

لكن الاختيار الثاني وقوامُه أن يتنكّر صراحةً للمبادئ النزيهة والكريمة التي طالما افتخر بها بدا له مستحيلاً أيضاً.

ولذلك كانت رسالة الوكيل مبعثاً لاغتمامه.

× × ×

-٤-

عندمـا انتهى نيكليودوف من فطـوره، انتقل إلى مكتبه، كان يريد أن يقـرأ، في الدعوة الموجهة إليه، ساعة الجلسة في قصر العدل، وكان عليه أيضاً أن يرد على الأميرة كورتشاغين، وعَبرَ مشاغله الذي عُلقت فيـه علـى الحامل لوحة شـرع برسمهـا، والذي تدلّت علـى جدرانه دراسـات شتّى. إن هـذه اللوحة الذي مازال يشتغـل فيها منذ سنتين دون أن يتمكـن من إنجازها، ودراساتـه، وتخطيطاته وبكلمة واحدة إن حالة مشغله ابتعثت فيه الإحساس المتزايد بعجزه عن التقدم في فن التصوير، والشعـور بنقصان موهبتـه. وكان، في الحقيقة، يعزو ذلك الإحساس إلى الإرهاف المفرط لذوقه الفنـي؛ لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في أنه قد ترك الجيش، قبل خمس سنوات، لاعتقاده أنـه اكتشف في ذاتـه موهبة الفنان. ولذلك كان أقـرب إلى الاكتئاب عندما دخل مكتبـه الواسع المغطّى بالمذهبات والممتلئ بوسائل الراحة الفاخرة. واقترب من مكتب كبير مليء بالأدراج المُعَنْونة، ففتح درجاً كُتـب عليه «عاجـل»، ووجد فيه البلاغ الذي يبحـث عنه. كان هذا البـلاغ يُنبئه أن عليه الحضور إلى قصر العدل في الساعة الحادية عشرة. ثم أغلق نيكليودوف الدرج، وجلس، وبدأ رسالة ليشكر الأميرة على

دعوتهـا، وليقول لها إنـه يأمل أن يستطيع المجـيء للغداء بعد الظهر. لكنـه مـزّق الرسالة بعد أن كتبهـا، كانت لهجة الرسالة أكـثر ألفةً مما ينبغـي، ومزّق الرسالـة الثانية أيضاً: كانت مسرفـةَ البرودة، بل كانت خاليـة من التهذيـب، ودقّ الجرس، فدخل الغرفة خـادم كبير السن، وقور الهيئة. حليق الوجه، يلبس وزرة من القطن الرمادي.

– ائتني بعربة!

– وقلْ للمرأة التي تنتظر إنني أشكر الأميرة وأنني سأحاول المجيء. وفكّـر نيكليودوف: «هذا غير لائق، لكنـي لم أوفّق في الكتابة! على كل حال، سوف أراها اليوم».

ارتدى ثيابه وخرج إلى سطح الدّرج، فكانت العربة التي تُقلّه عادةً والتي غُلّفت عجلاتُها بالمطّاط، تنتظره.

قال له الحوذي الذي استدار نحوه نصف استدارة:

– ما كـدت تخرج، مسـاء البارحة، من عند الأمـير كورتشاغين حتى وصلت. قال لي الخادم: «قد خرج قبل هنيهة»:

فكّر نيكليودوف: «حتى الحوذيـون أنفسهم يعرفون علاقتي بآل كورتشاغـين». ومَثلتْ أمامه، مرة أخرى، تلك المسألة: وهي أن يعلم إن كان ينبغـي أن يتزوج الأميرة الشّابة أم لا، و لم يتوصّل إلى البتّ في هذه المسألة، لا بهذا الاتجاه ولا بذاك.

كانـت تؤيّد الزواج حجتان. أولاً إن الزواج، فضلاً عما يوفّره من

راحـة في المنزل، يُبعد عنه شذوذ حياته الجنسيـة، ويؤمّن إمكان حياة كريمة وأخلاقية؛ ثانياً وعلى وجـه الخصوص، كان نيكليودوف يأمل أن تَهـبَ العائلة والأولاد حياته هدفـاً، بعد أن غدت الآن بلا هدف. أما ضد الزواج فقد كان هناك، من جهة، ذلك النوع من الخوف الذي يوحـي به إلى العزّاب المسنين احتمـال فقدانهم حريتهم؛ وهناك أيضاً من جهـة أخرى، ذلك الخوف اللاواعي من الخفايا التي تحتوي عليها طبيعة المرأة.

الحجـة الأولى المؤيدة للـزواج بميسي («ميسي» هـو اللقب الذي كانـت تُلقّـب به الأمـيرة الشابـة كورتشاغـين في حياتهـا الخاصّة، والتّـي كان اسمُهـا الحقيقـي مـاري) هو أن الفتـاة تنتمـي إلى عائلة كريمـة وأنها، في كل الأشياء، بـدءاً من زينتها حتى طريقتها في الكلام والمشـي والضحك، تختلف عن عموم النسـاء، لا بشيء استثنائي بل «بتميّزهـا». لم يكن نيكليودوف يجد كلمة أخـرى غير «تميّز» لتدلّ علـى تلك الصفة التي كان يُكبرهـا إلى أقصى حد. والحجة الثانية هي أنها كانـت تقدّره أكثر من غيرها، وتفهمه أكـثر من غيرها؛ ولكونها كانت تفهمه، أي تقرّ بمزاياه الرفيعة، فقد وجد في ذلك الدليل القاطع علـى ذكائهـا وصحّة حكمها، لكـن كان هناك حجـج خطيرة ضد الـزواج بميسي: الحجة الأولى هـي أن باستطاعـة نيكليودوف، على الأغلب، أن يعثر على فتاة أكثر «تميزاً» منها؛ والثانية أن ميسي صارت في السابعـة والعشرين ومن المحتمـل أنها أحبت رجالاً آخرين. وهذه الفكـرة كانت تعذّب نيكليودوف، فلم يكن غروره ليرضى أن تكون هـذه الفتاة قد أحبّت، حتـى في الماضي، أحداً غـيره. ولاريب أنه لا يستطيـع أن يطلب من الفتاة أن تعرف مسبقـاً أنها ستلتقيه ذات يوم؛

لكن مجرّد التفكير بأنها أحبّت غيره كان إذلالاً له. وهكذا فإن الحجج التي تؤيد الزواج وتنقضه كانت متساوية. وكان نيكليودوف يشبّه نفسه، في شيء من الدعابة، بحمار «بوريدان». لكنه ظل مع ذلك شبيهاً بحمار «بوريدان» فلا يدري نحو أي من حزمتي القش يتجه.

وفكّر في نفسه: «ثم إنني مادمت لم أتلقَ رداً من «ماريا فاسيليفنا» و لم تنته تلك القضية، فمن المستحيل علي أن ألتزم شيئاً».

سرّه هذا الإحساس بضرورة تأجيل قراره. وقال في نفسه أيضاً، بينما كانت عربته تجري دون ضوضاء على إسفلت فناء قصر العدل: «سأفكر في ذلك فيما بعد». وقال وهو يمر قرب حارس قصر العدل: «القضية الأساسية الآن بالنسبة إلي هي أن أؤدّي واجبي الاجتماعي بالعناية التي أُعالجُ بها كل شيء. ثم إن هذه الجلسات شائقة جداً في الغالب.

× × ×

-٥-

عندما دخل نيكليودوف قصر العدل، كانت الممرات تعجّ بالحركة. كان الحراس يركضون وهم يحملون الأوراق، وكان آخرون يمشون بخطىً رصينة وهادئة، وأيديهم خلف ظهورهم. وكان الحُجاب والمحامون ووكلاء الدعاوى يتمشّون ذهاباً وإياباً؛ أما أصحاب الطلبات والمتّهمون الطلقاء فقد انزووا بتواضع قرب الجدران، أو ظلّوا جالسين في مقاعدهم ينتظرون.

سأل نيكليودوف أحد الحراس:

– أين محكمة المقاطعة؟

– أية محكمة؟ الجنائية أم المدنية؟

– أنا محلّف.

– إذن، محكمة الجنايات! كان يجب أن تقول ذلك فوراً. اذهب إلى اليمين ثم إلى اليسار، الباب الثاني.

سار نيكليودوف في الممرات.

أمام الباب الذي أشار إليه الحارس وقف رجلان وهما يتحدثان. كان أحدهما تاجراً ضخم الجسم، ولا شك أنه أكل وشرب بوفرة؛ استعداداً للقيام بمهمته، فبدا في أبهج حالاته الذهنية؛ وكان الآخر وكيلاً تجارياً من أصل يهودي. كانا يتحدثان عن سعر الأصواف عندما اقترب منهما نيكليودوف وسألهما إن كان هذا هو المكان الذي يجتمع فيه المحلفون.

– نعم، يا سيدي، هو بعينه.

وأضاف التاجر الباش وهو يبتسم ويغمز بعينه.

– لاشك أنك محلّف أيضاً، أحد زملائنا؟

وبعد أن ردّ نيكليودوف بالإيجاب تابع قائلاً:

– حسناً! سنعمل معاً!

وأضاف وهو يمدّ يده العريضة للأمير:

– باكلاشوف. من الجمعية التجارية[٧] الثانية. ومع مَنْ لي شرفُ الحديث؟

سمّى نيكليودوف نفسه ودخل قاعة المحلّفين.

همس اليهودي:

---

٧. كان أغنى التجار في المدينة يشكلون الجمعية الأولى والجمعية الثانية.

– هذا الذي كان أبوه ملحقاً بالإمبراطور.

واستخبر التاجر:

– ولديه ثروة؟

– إنه واسع الثراء.

في غرفة المحلّفين الصغيرة، اجتمع حوالي اثني عشر شخصاً من جميع الفئات، كلهم وصلوا قبل قليل، كان بعضهم جالساً وبعضهم يتمشّى ذهاباً وإياباً. وقد أخذ يفحص بعضهم بعضاً ويتعارفون؛ كان بينهم عقيد متقاعد، في بزته؛ وكان بعض المحلفين الآخرين يلبسون السترة الرسمية أو السترة القصيرة؛ محلّف واحد فقط كان في ثيابه العادية. كثير منهم تركوا أعمالهم ليؤدوا مهمات المحلفين. و لم يكفّوا عن الشكوى من ذلك، وبالرغم من ذلك فقد ارتسم على وجوههم الرضا الممتزج الإفتخار، والشعور بأنهم يؤدون واجباً اجتماعياً.

بعد أن انتهى هذا الفحص الأول، تجمّع المحلّفون دون أن يعمّقوا علاقاتهم. ودار الحديث عن الطقس، وعن قدوم الربيع المبكّر، وعن الدعاوى المسجّلة في الجدول. وبادر عدد كبير من المحلفين إلى التعرّف بالأمير نيكليودوف؛ ولاشك أنهم رأوا في ذلك التعرّف شرفاً عظيماً لهم. ووجد نيكليودوف ذلك طبيعياً ومشروعاً، كدأبه دائماً. ولو أنه سُئل لماذا يعتبر نفسه أسمى من معظم الناس لعجز عن الإجابة، لأن حياته، ولاسيما في الآونة الأخيرة، لم يكن فيها ما يستحقّ التقدير. كان، في الحقيقة، يتكلم الفرنسية والإنكليزية والألمانية بطلاقة؛

وكانت ملابسه الداخلية والخارجية وربطات عنقه وأزرار أكمامه تأتيه دائماً من أشهر المخازن، وكانت أغلى مما هو موجود؛ لكنه هو نفسه ما كان يزعم أن ذلك كله صفة كافية لتجعل منه كائناً أسمى، على أنّه كان يشعر شعوراً عميقاً بسموّه، ويعتبر مظاهر التكريم التي يخصه الناس بها كأنها واجبة الأداء. وكان غياب ذلك التكريم يجرحه وكأنه إهانة.

مثل هذه الإهانة كانت تنتظره في غرفة المحلّفين بالضّبط، فبين المحلّفين كان رجل يعرفه، اسمه بطرس غيراسيموفتس – لم يعرف نيكليودوف قط اسم عائلته– كان مربياً لأولاد أخته. وقد أنهى بطرس هذا دروسه وأصبح في الوقت الحاضر أستاذاً في معهد ثانوي. كان نيكليودوف يجده ثقيل الظل بسبب دالته، وضحكه الذي ينمّ على الإعجاب بالذات، وسوء تصرّفاته، وهيئته «المبتذلة» كما كانت تقول ابنة أخت «نيكليودوف».

قال للأمير وهو يتقدم نحوه على وجهه ضحكةً عريضة:

– آه! وأنت أيضاً، جاء بك الحظ! ألم تسعَ إلى إعفاء نفسك.

أجاب نيكليودوف بجفاف:

– لم يمرّ ببالي قط أن أسعى إلى إعفاء نفسي.

تابع المربّي كلامه وهو يضحك ضحكاً أشد:

– عظيم! هذه صفة حسنة من صفات الشّجاعة المدنيّة، سترى كيف ستتألم من الجوع! ولا سبيل إلى النوم أو الشرب!

وفكّر نيكليودوف:

«ابـنُ الكاهن هذا لن يلبث طويلاً حتـى يخاطبني بضمير المفرد!» وأسبغَ على وجهه تعبيراً حزيناً كأنه علم قبل هنيهة، بموت أحد أقربائه، فـأدار ظهره لبطرس غيراسيموفتش ليقترب مـن جماعة تشكّلت من حول شخص طويـل القامة، حليق الوجه، عظيـم الوقار، منهمك في روايـة قصة مـا. كان يتحدث عن دعوى تحكم فيهـا المحكمة المدنية، ويتكلم كمـن يعرف بعمق القضيـة برمّتها مسمّيـاً القُضاةَ والمحامين بأسمائهـم. وقـد أفاض في الحديث عن الوجهة الغريبـة التي وجّه بها الدعوى محـام شهير من بطرسبرج، فبفضله أيقنـت سيدة عجوز بأنها ستخسر دعواها مع أنها هي صاحبة الحق. وهتف:

– إنه عبقري، ذلك المحامي!

كان الحضـور يصغون إليه بانتبـاه، فأراد بعضـ المحلّفين أن يبدوا رأيهم، لكنـه كان لا يلبث أن يقاطعهم، وكأنه كان وحده يعرف بدقة حقيقة الأمر.

كان علـي نيكليودوف أن ينتظر طويلاً في غرفـة المحلّفين، مع أنه وصل متأخراً إلى قصر العدل: ذلك أن أحد أعضاء المحكمة لم يكن قد وصل بعد؛ وكانوا ينتظرونه ليفتتحوا الجلسة.

× × ×

-٦-

أما رئيس محكمة الجنايات فقد وصل إلى قصر العدل مبكّراً. كان رجلاً طويلاً وبديناً، له سالفان طويلان وخطهما الشيب. وكان، وهو متزوج، يعيش حياة ماجنةً، وكانت امرأته تفعل مثله: كان مبدؤها ألا يضايق أحدهما الآخر. وفي صباح هذا اليوم بالذات، تلقّى الرئيس بطاقة من مربية سويسرية عملت قديماً في بيته، وهي تمرّ الآن بالمدينة قاصدةً إلى بطرسبرج، تقول فيها: إنها ستنتظره بين الساعة الثالثة والساعة السادسة في فندق إيطاليا. ولذلك كان مستعجلاً ليبدأ ولينهي جلسةَ اليوم بأسرع ما يمكن حتى يتسنّى له لقاء «كلارا» في الساعة السادسة، تلك الشقراء التي بدأ معها مغامرة غرامية في الصيف الماضي.

حين دخل مكتبه، أغلق الباب بالمفتاح، وتناول من درج الخزانة الأسفل ثقالة الحديد، وقام بعشرين حركة إلى الأمام وإلى الخلف، وعلى الجانب، وإلى الأعلى وإلى الأسفل. وبعد أن فعل ذلك ثلاث مرات متوالية طوى ركبتيه طياً خفيفاً وهو يرفع الثقالة فوق رأسه.

وفكّر وهو يقرص بيده اليسرى التي يلتمع فيها خاتم ذهبي، العضلة

البارزة في ذراعه اليمنى: لا شيء يُكسبنا النشاط مثل الإغتسال بالماء والرياضة. وكان يتأهب أيضاً للقيام بتمرين «الطواحين» – إعتاد أن يقوم بهذين التدريبين قبل كل جلسة طويلة –عندما اهتزّ الباب. كان وراءه من يحاول فتحه. فبادر الرئيس إلى إخفاء الثقالة وفتح الباب. قال:

– معذرة.

دخل الغرفة أحد قضاة المحكمة. كان رجلاً قصير القامة، مقرّن الكتفين، حزين الوجه، يضع على أنفه نظارة ذهبية. وهتف بصوت نحيل:

– حسناً! لقد حان الوقت!

أجاب الرئيس وهو يرتدي بزّته:

– أنا جاهز. لكن «ماتيو نيكيتتش» لم يحضر بعد!

فوافقه القاضي قائلاً:

– في الحقيقة، لقد بلغت به قلّةُ الوجدان حدًّا بعيداً.

وجلس على أحد المقاعد، وهو بادي الإمتعاض، وأشعل لفّافة.

وقعت بين هذا القاضي، وهو رجل دقيق للغاية، وبين زوجته مشاحنة، هذا الصباح، كأسوأ ما تكون المشاحنة، لأنها أنفقت مال الشهر بسرعة فائقة. وطلبت سلفة فرفض: ومن هنا المشاحنة. وأعلنت